أحمد بابا ولد أحمد مسكه

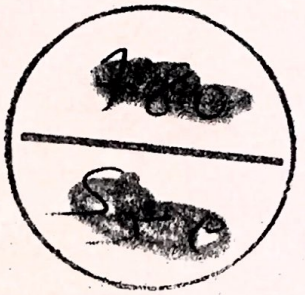

القهر الحضاري

رسالة مفتوحة الى مثقفي العالم الثالث

(نص مختصر)

١٩٨١

فجر/ بيروت

زملائي المحترمين

هذه الرسالة تعني قبلكم الشعوب، في الدرجة الاولى، لكنها تحمل عنوانكم لعدة اسباب: اولا لكي لا تضيع، فساعي البريد في عالمنا المتخلف لا يعرف سواكم، ولان دليل الرموز الذى يمكن من قراءة الرسائل في هذا العصر لا يتوفر الا عندكم، فالشعوب مضطرة الى الاعتماد عليكم "تترجمون" لها ما اردتم، فهل تبلغون الامانة؟

ثم ان الرسالة تعنيكم انتم كذلك لا فقط كغيركم من فئات الشعب، بل لان عليكم مسوءولية خاصة لن يوءديها غيركم، وذلك ان مجتمعاتكم المتخلفة لن تستطيع التخلص من القهر الحضارى الذى تعاني منه والذى هو السبب الرئيسي لعجزها، الا اذا قمتم بدوركم الخاص الحيوى والذى سنتحدث عنه فيما بعد؛ على الاقل لا غنى عن تأدية جزء منكم لذلك الدور...

وربما استنكر هذا المنطق بعضكم ــ وهم قليلون الا انهم من خيرتكم ، مخلصون لشعبهم الى حد التقديس، ربما استنكروا واجابوا بان الشعب وحده هو كل شيء ولا يفتقر الى احد ؛ وسنرى الى اى حد نحن نشاطرهم هذه القناعة.

لا شك انكم تتساءلون لم هذه الرسالة؟ لان وضع شعوبنا كان مقلقا ومزريا وخطيرا فأصبح بكل اختصار مرفوضا ، لا يطاق ، ولان حضاراتنا مهددة بالانقراض العاجل ، ولانكم تتحملون تجاه هذا الوضع مسوءولية عظمى .

تتحملون او ... نتحمل ، فالذى يخاطبكم هو في الحقيقة واحد منكم يعتبر الانتقادات التي سيوجهها لكم نقدا ذاتيا (في حالات كثيرة) ولا يدعي الفضل على احد ، انما يجد من واجبه ان ينبه الى ما يرى من حقائق خطيرة ربما يراها غيره لكن من يتحدث عنها؟ ويرى من واجبه كذلك ان يقدم للجميع ما لديه من آراء وليدة ما شاء الله من التجربة ومن التفكير ، فان قدر لبعضها ان يكون مصيبا ، كان ذلك من حسن حظنا جميعا ، ويبقى على كل حال الاهم وهو فتح حوار واسع النطاق وصريح وعميق حول السوءالين الاساسيين المطروحين الان على مجتمعاتنا المستباحة العاجزة :

١) ماهو السبب الرئيسي لهذا العجز ولكل ما ينجم عنه من تخلف وتبعية الخ؟

٢) ماهو العلاج الملائم كي ننقذ مجتمعاتنا وحضاراتنا ؟

وقد حاولت هذه الرسالة الجواب على السؤالين ، ولعلها تكون على الاقل بمثابة مقدمة للحوار المنتظر والضرورى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تنبيه صغير

يقولون : "معرفة الاسباب معينة على التأويل" .

في البداية كان شيء من الاستغراب ... ثم الحيرة امام عدم جدوى تجارب العالم الثالث ، امام فشل محاولاته المتنوعة للخروج من التخلف ، ومن الحيرة تسرب الشك .. الشك في صحة النظريات السائدة عند الاوساط التحررية والمعادية للامبريالية (١) ، الشك في جدوى الاساليب المتبعة وانواع العلاج المستعملة .

كان ذلك اثناء العقد الماضي (السبعينات) . ومن الشك الى اليقين بان هناك علة اخرى لم تكشف (او لم توصف بشكل ملائم) وان هناك دون شك علاج آخر لم يمارس بعد؛ وتركز التفكير اثناء السنين القليلة الاخيرة حول هذا الموضوع بالذات ، وكلما سمحت الظروف بشيء من الوقت للغوص فيه سُجلت افكار وملاحظات ومناقشات خصوصا اثناء السنتين الماضيتين في اماكن مختلفة من العالم العربي والافريقي ومن اوروبا (الجزائر ، دكار ، نواكشوط ، باريس ، طرابلس ، منروفيا ، آندى ، بغداد ، روما ، ابدجان ، اطار ، بيروت ، اندر الخ اثناء زيارات منها الطويلة ومنها القصيرة ومنها الخاطفة . وبدأ التحضير لكتاب يتعرض للوضع الدولي وحالة المستضعفين فيه من جميع جوانبها ، ثم اتضح ان الاولوية المطلقة ينبغي ان تعطى لانجاز عمل مستعجل هدفه التنبيه واثارة النقاش والبحث عن مخرج قبل فوات الاوان ، فتقررت صياغة

"موجز" للموضوع يكتفي بالاهم اى الجوهر، وتجسد القرار في كتابة هذه الرسالة القصيرة اثناء اقامة انعم الله بها في مدينة اكجوجت في بداية هذه السنة (١٩٨١)٠

نحن واوروبا او
"قصة الغراب والرخمة" (٢)

لقد فشلت كل الجهود التي بذلت في عالم المستضعفين (خصوصا عالمنا الاسلامي والعربي والافريقي) من اجل القضاء على التخلف، فشلت كل محاولات النمو من طرف الانظمة على اختلاف انواعها وايديولوجياتها.

ماهو السر في هذا العجز المزمن القاتل؟ لماذا لا تستطيع مجتمعاتنا لا ان تقلد الحضارة المسيطرة وتتعلم من اوروبا حتى تصبح في مستواها (او تقترب منه)، ولا ان ترفض هيمنتها الحضارية وتستنبط اساليب وطرقا اخرى تواجه بها التحدى الاوروبي (٣)؛ ما السبب؟ ان الاوروبيين انفسهم يعترفون بانهم ليسوا اذكى منا فطريا وان كل بني آدم من طينة واحدة، كما ان علومهم الحديثة وتكنولوجياتهم ومناهجهم اشياء مشاعة يمكن لمن شاء الاطلاع عليها ان استطاع، لكننا لم نستطع... فلماذا؟

الاجوبة التي قدمت حتى الان كثيرة رغم ان السؤال لا يطرح عادة بهذا الوضوح وهذه الصراحة ولا غرابة ان لا يصيب الجواب ان غمض السؤال.

الخطأ الاول والخطير هو اننا لا نعترف بالواقع المر كما هو، لا نعترف بالفشل وبالعجز الا جزئيا وبشكل ملتو ومراوغ وتحاول دائما انظمتنا وقياداتنا ان تظهر بمظهر الكمال لا فقط تجاه الاجانب (وربما كان لذلك بعض المبررات..) ولكن ايضا تجاه مجتمعها نفسه. وليس الذنب فقط ذنب الانظمة فسنرى دور المثقفين والنخبة "المتنورة" بصفة عامة، وليس المثقفون والانظمة الا تعبيرا (مختلف الاشكال) عن واقع المجتمعات المعنية.

السر في عجز المجتمعات المستضعفة ليس نقصا في الذكاء الفطرى طبعا رغم ادعاءات العنصريين فقد سبق لها (ولامتنا الاسلامية بصفة خاصة) ان فاقت اوروبا قرونا طويلة وشيدت حضارة لا مثيل لها في عصرها، وليس، كما يقال كثيرا، لنقص في التعاون الدولي وبخل الاثرياء المصنعين والافتقار الى رساميل مفقودة، وليس السبب الرئيسي للفشل اقتفاء هذا النوع او ذاك من النظم السياسية والاقتصادية، وليس السبب هذا النوع او ذاك من المشاكل التقنية، او المادية مهما كبرت.

لا، "فالامر اشد" كما يقولون.

الامر ان مجتمعاتنا استبيحت روحيا وفكريا واخلاقيا .. سلبت روحها فبقيت اجساما ضائعة، قطعان غنم يتصرف فيها من يعثر عليها او من "يكتشفها" حسب العبارة الاستعمارية.

الامر ان احدى حضارات العالم استطاعت ان تسيطر على ما عداها من الحضارات بشكل لم يسبق له مثيل. لقد سبق ان تغلبت امم على اخرى وان اثرت

حضارات على اخرى الى حد الابتلاع احيانا ، لكن لم يشهد تاريخ البشرية قبلُ ان حضارة واحدة تخضع جميع الامم لهيمنتها وتوحد تحت نفوذها أساليب التفكير والحياة في جميع انحاء المعمورة، لقد تطورت الحضارة الاوروبية اثناء القرون القليلة الماضية بسرعة مذهلة بفضل اكتشافات علمية وفكرية (منهجية) سبقت لها جاراتها رغم ان بعض هذه الجارات كان اكثر تقدما وتأهيلا للسبق الا ان عوامل يطول شرحها عاقته وسببت له الركود ثم الانحطاط. استغلت اوروبا الظروف احسن استغلال وحولت اكتشافاتها الى طاقات جبارة مادية وفكرية، مكنتها من غزو الامم ماديا (في البداية) واستغلال ثرواتها وسواعدها لتبني امبراطورية عملاقة؛ثم جاء الغزو الفكرى والروحي امتدادا للسيطرة السياسية والاقتصادية ومكملا لها حيث بنى لها اسسا لم تعد تفتقر معها للاحتلال المباشر اذ غرست التبعية والتقليد في اعماق المغزوين.

نعم ، استطاعت اوروبا اثناء الاحتلال الاستعمارى الطويل ان تهيء كل شيء فقد كان لوقع اسلحتها الفتاكة غير المألوفة وتأثيرها في النفوس ثم لاساليبها ومناهجها المتفوقة اثر مذهل لم يلبث ان تحول الى اعجاب وتقديس لدى النخبة الجديدة التي بدأت تتكون بارادة الغزاة وتوجيههم ورعايتهم... نخبة صُنعت في ظروف جعلتها تبتعد (فكريا واجتماعيا) عن مجتمعاتها وتولي وجهها نحو قبلة واحدة هي اوروبا.

تمزقت المجتمعات الاصلية وانقسمت الى قسمين:

اقلية اندمجت الى حد ما في الحضارة الحديثة (اى الاوروبية) وصارت عمليا امتدادا لها ارادت ام كرهت (فبعضها يرفض التبعية السياسية ويحاربها لكنه في نفس الوقت يُكون عاملا فعالا للهيمنة الحضارية) وجمهور هو الاغلبية الساحقة يستهوى الكثير منه بريق الحضارة الغازية الا انه لا صلة بينه وبينها الا الاستغلال المباشر او غير المباشر ولا سبيل له الى الالتحاق بركبها، لا مكان له في مدارسها ولا وسائل تعليمها وليس له بها من الاحتكاك ما يخول له الاقتباس منها.. فهي حتى بالنسبة لاكثرية النخبة "سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا".

اما الشعب فلا يصل حتى الى القيعة، مجتمع اذا فقد ثقته بنفسه وسُلب المبادرة التاريخية فأصبح جسما بلا روح، كما انه اصبح جسما بلا رأس اذ قُضي على قياداته الطبيعية التي جُردت من كل نفوذ ومن كل احترام؛ وانقطعت منه النخبة الحديثة التي اصبحت، دون ان تعي، اداة للهدف الذى صنعت من اجله: الهيمنة الحضارية... بل هي واعية وفخورة بأنها اداة التغيير والتقدم والرقي وهي فعلا كذلك الى حد ما.. والعكس في نفس الوقت (سنرى حيث يكمن التناقض).

كيف ننتظر من جسم بلا روح وبلا رأس ان ينمو وان يعرف كيف يوجه خطاه وكيف يدافع عن نفسه وماله، كيف يتقدم او.. يتأخر؟

بقي ان نرى بشيء من التفصيل (ولو قليل) كيف تمت الحيلة.

ان اخطر ما فعلوا هو انتزاع الثقة في النفس، ثقة المجتمع بنفسه. وقد تم ذلك بطرق شتى من اشنعها ما غرسوه فينا من مركبات نقص اصبح الناس بموجبها (خصوصا النخبة.. ثم اتسعت الدائرة) يخجلون من مجتمعهم، من واقعهم، من كل ما كانوا يفخرون به، يخجلون من كل شيء.. اهم الاشياء التي تميزهم واتفهها، قيم روحية واخلاق، عادات تتعلق بالحياة اليومية وتقاليد منها السلبي ومنها الايجابي الا انها اصبحت معرضة للاحتقار والاشمئزاز جملة وتفصيلا.

لكن المدرسة الاوروبية كانت هي اهم ادوات التخريب والتفكيك لبنية مجتمعنا. كانت المناهج التربوية الحديثة فتاكة وقاهرة في الميدان الفكرى كما كانت المدافع والطائرات في الميدان العسكرى. ولم تكن عقول الاطفال مهيأة للمقاومة اكثر مما كانت سواعد آبائهم العزل. وسرعان ما يمتليء عقل الطفل وقلبه اعجابا باساتذته ويتعلم اشياء كثيرة يطلع على ان ذويه يجهلونها، حتى العالم منهم والمجرب.. وتكبر حيرته فيتفضل معلمه الذكي الخبير بتقديم التفسير المناسب: لا غرابة فهذا مجتمع متخلف تسيطر على عقوله تقاليد "العصور الوسطى" وديانات "مظلمة" يجب انقاذه منها... الخ.

تتم تدريجيا القطيعة الفكرية والروحية بين الشباب ذوى التعليم الحديث وبقية المجتمع.. ثم تتسرب نفس الافكار شيئا فشيئا داخل قطاعات اخرى تتسع مع اتساع التعامل: عمال، تجار، خدم...

يصبح هدف هؤلاء واولئك تقليد الاوروبي والتشبه به لكن لا يصل الى الشبه الا القليل النادر الا ان الجميع يفقدون هويتهم الحقيقية،تماما مثل ما حصل للغراب

"النشاطية" (٤)

ولسنا هنا بصدد التنديد ولا التشويه.. فالحضارة الاوروبية بدون شك من المع الحضارات التي عرفتها البشرية ورغم ان الاوروبيين لم يستطيعوا ان يشيدوها الا بالاعتماد على اسس حضارية تراكمت لبنائها مساهمات عديدة عبر التاريخ ولعبت فيها الحضارة العربية الاسلامية دورا حاسما ، رغم ذلك فانهم عرفوا كيف يغنون التراث المشترك ويطورونه ويستخرجون منه طاقات هائلة خلاقة و.. هدامة ، وربما كان اهم واروع شيء اكتشفوه او على الاقل طوروه الى حد الابداع تلك المنهجية الفكرية للتحليل والتقويم والتنظيم... التي فتحت آفاقا لا نهاية لها للاكتشافات العلمية والفكرية ، وادخلوا بذلك تغييرا نوعيا على مجتمعهم ، سمته الاساسية تلك الحيوية الغريبة التي تطبع حياتهم وتميزها من بين المجتمعات المعاصرة ، حيوية يمكن ان نسميها بـ"النشاطية" لا يستقر قرار من مني (او بلي) بها ولا يفتر عن العمل والبحث عن معلومات ، عن علوم ، عن شيء جديد ايا كان نوعه ، وتلك صفات لم تكن مجهولة عند الحضارات

الاخرى الا ان الذين يتحلون بها كانوا دائما قلة نادرة بحيث ان بروز احدهم في مجموعة من البشر يمكنه من التفوق على قومه (سياسيا او ثقافيا او عسكريا .. الخ) فيوصف مثلا بانه نابغة زمانه.. بينما ارتفعت النسبة في اوروبا الحديثة والمصنعة بحيث اصبحت "النشاطية" هذه هي الطابع السائد فيها، طبعا لم يتحولوا الى شعوب من "النوابغ" الا ان انتاجيتهم مثلا (مادية كانت او فكرية) اى انتاجية الفرد العادى تفوق باضعاف ماهي عليه في المجتمعات الاخرى ـ هذا احد اسرار تفوقهم وربما كان اهمها.

يتساءل البعض لماذا اذا لا نقلدهم حتى النهاية ونساعدهم على تعميم حضارتهم لانقاذ البشرية جمعاء من التخلف والجوع والجهل؟

لاسباب عديدة منها:

١) ان النتيجة غير مضمونة (وذلك اقل ما يقال عنها).. فلو فرضنا اننا رضينا لانفسنا بالتخلي عن قيمنا وتراثنا التاريخي وهويتنا الخاصة، فلن يمكننا ذلك من الاندماج فيهم ونكون بذلك "ارظعنا ولا اروينا" اذ سوف نرى ان التشبه بالغير هو اصعب شيء على الانسان أحرى على شعوب بأكملها (اللهم الا فيما يتعلق بالمظاهر السطحية والتافهة) وان مجتمعا فقد تماسكه ومقوماته الاساسية وثقته بنفسه، لا يبقى فيه من الحيوية ما ينهض به لمسايرة التاريخ ولا لسبقه، طبعا.

٢) وان شعوبا عديدة ـ في الحقيقة اكثرية شعوب

العالم الثالث او على الاقل انظمتها وقياداتها الحديثة ـ حاولت بكل ما لديها من وسائل، اللحاق باوروبا عن طريق التقليد المطلق لها ، ففشلت ولم تزل تتخلف سنة بعد الاخرى.

المشكل ان اوروبا (والظروف نفسها ارادت اوروبا ام كرهت) لا تعطينا الخيار بين ان نصبح اوروبيين (ان رضينا) او نبقى متخلفين.. لا شك ان البعض مستعد ليبيع روحه "للشيطان" مقابل النمو والتقدم.. الا ان الشيطان الاوروبي داهية يريك بريق الرفاهية والرقي حتى يأخذ روحك ثم يترك لك مكانها : لا شيء ، لا روح اوروبية (من اى نوع كانت) ولا روح مزدوجة، اما روحك الاصلية فقد ضاعت ،وتبقى في احسن الاحوال قردا لاوروبا "يمشي مشيتها"، يقلد بعض حركاتها السطحية دون ان يستوعب ما كان او ما بقي لها من قيم انسانية ومن اخلاق وقد فقد ما كان له فيبقى مجردا تماما من كل وازع او رادع (وهذا سر ظهور بعض الدكتاتوريات الغريبة في بلدان العالم الثالث).

نذكر للامانة ان هناك افرادا اقل من القليل يستوعبون الحضارة الاوروبية حتى يتفوقوا فيها وربما فاق بعضهم اهلها ، لكن.. ما تغني دار ابي سفيان من قريش؟

ليست لنا في اوروبا اسوة حسنة

٣) ليست الحضارة الاوروبية رغم بريقها نموذجا

مثاليا، ليست اسوة حسنة في كل شيء بل هي بعيدة عن ذلك. لقد فقدت هي الاخرى (او كادت..) روحها بمعنى آخر ولاسباب اخرى، فقدتها باضمحلال قيمها الروحية والاخلاقية التي لا يغني عنها التفوق المادى والتقني، هذا الاضمحلال الذى لا يجد الانسان معه راحة النفس ولا اطمئنان القلب اى ما يسمى "بالسعادة" في قاموس العصر (فضلا عن السعادة الاخروية طبعا) فما فائدة التفوق والترفه والتفنن في "الاستهلاك" بجميع أشكاله اذا عاش المستهلك المترف شقيا في دنياه.. وهو في الاخرة اشقى؟ يظل شقيا الى حد الانتحار الذى اصبح علامة من علامات الرقي في المجتمعات الحديثة ترتفع فيها نسبته بنسبة النمو الصناعي والتكنولوجي، ومقابل كل فرد يبلغ به الشقاء حد الانتحار هناك آلاف يعيشون تعساء رغم توفر كل شيء تصبو اليه النفس ماعدا.. راحة النفس. هل هذا مثل اعلى يستحق ان يكون هدفا رئيسيا لمجتمع يملك حرية الاختيار، مجتمع لا يزال ولله الحمد يجهل هذا النوع (على الاقل) من التعاسة؟

وهناك حل آخر، محتمل على الاقل، يجب ان نبحث عنه يضمن للمجتمعات المستضعفة الحفاظ على هويتها (او استرجاعها.. انقاذها..) وفي نفس الوقت يمكنها من مواجهة التحدي الذى فرض عليها، ويضمن للانسانية الحفاظ على تنوع الحضارات الذى كان دائما احد منابع الهامها وتقدمها بالتبادل والتنافس المثمر

وحتى الاصطدام احيانا ...

كل ذلك مهدد بسبب القهر الحضارى الذى كاد يبلغ نهايته الوخيمة "بتوحيد العالم" اى بالقضاء على جميع الحضارات الا واحدة تصبح الامم الاخرى موالي لها.

نعم للتقنية، لا للمسخ

طبعا لا يعني رفض الهيمنة الحضارية الاوروبية ان نرفض الاستفادة من الاكتشافات العلمية الحديثة وما ينتج عنها من تكنولوجيات شتى، فان لم نفعل فلن نستطيع حتى مجرد الدفاع عن حريتنا.. وعلينا ان لا ننسى ان التسلط لم يعد يتطلب اى تواجد عسكرى ولا سياسي، فمن لا يتقن التكنولوجيات الحديثة لا يستطيع الحيلولة دون استعمالها ضده سواء في الميدان الاقتصادى او العلمي او الحربي او الاعلامي (غسل الدماغ بواسطة ادوات الدعاية الرهيبة) او الثقافي.

انما يعني الرفض المبدئي للقهر الحضارى ان لا نستمر في الجرى وراء اوروبا مع انعدام الامل في اللحاق بها.. يعني ان نقف قليلا.. اياما او اسابيع او شهورا لنتساءل ماذا نريد.. لنطلع اولا على الواقع المر دون مراوغة، ونطرح كل الاحتمالات ثم نختار الطريق الذى نفضله.

حتى لغاتنا تستعمل كـ"حصان طروادة"

لنعد قليلا الى وصف ما سميناه بالواقع المر، قبل ان نصل الى الاختيار المحتمل ففي وضوح الطرح نصف الجواب (ان لم يكن نصف النجاح)

من اكبر المظاهر دلالة، مظاهر التقريد (ان صح التعبير)، اوالمسخ مايجرى فيالميدان الثقافيواللغوى بالذات. من المعلوم ان للاستعمار الثقافي دورا اساسيا في ارساء جذور الاستعمار السياسي والاقتصادى (وما سميناه الهيمنة الحضارية بصفة اعم)، لذلك فان بعض حركات التحرير والانظمة الوطنية في بلدان من العالم الثالث ادرجت بين اهدافها مكافحة "الامبريالية الثقافية" وادرجت في لائحة الاجراءات الضرورية الرجوع الى استعمال اللغات الوطنية واعادة الاعتبار اليها واعطاء برامج التعليم محتوى وطنيا، وهذه بالطبع مطالب مشروعة تمثل ادنى حد مما تتوق اليه الشعوب المستضعفة؛ ورُسّمت فعلا اللغات الوطنية في كثير من البلاد واستعملت من جديد على مستويات مختلفة.. لكن.. ياللعجب! فان تلك الاجراءات لم تزد الهيمنة الحضارية الا رسوخا في الاعماق ذلك ان اللغة نفسها (أية لغة) اصبحت اداة طيعة لتعميم افكار الغزاة وقيمهم واخلاقهم؛ ولكي تكون فعلا تلك الاداة الطيعة فانها تمزق وتهان وتعرض لانواع التعذيب والتنكيل لتتشبه (٥) بسيداتها الاوروبيات اسلوبا ومضمونا، لا لتعبر فقط عن معان بعضها جديد بالنسبة

لها ، لكن لتكون نسخة طبق الاصل ، ترجمة حرفية للكلمات الاوروبية.. ولو انها في كثير من الاحيان لا تعني كبير شيء في اللغة المترجم اليها الا لمن سبق له ان اطلع ، قليلا او كثيرا على الثقافة المترجم منها . ان الهيمنة الحضارية اصبحت اقوى بكثير مما كانت عليه في عهد الاحتلال العسكرى والادارى المباشر . فبتطور الطاقات الكبرى التي اكتشفتها اوروبا والتي تحدثنا عنها ، المادية منها والفكرية برزت وسائل هائلة لبث النفوذ الاوروبي وترسيخه وتعميمه مثل اجهزة الاعلام والدعاية الكبرى والسينما والنشر والتعليم (فرغم "تأميم" التعليم في كل بلد ، بقي في الحقيقة مضمونه اوروبيا الا في نقاط ثانوية او بعض الشكليات) .

بكل هذه الوسائل استطاعت الحضارة المهيمنة ان تحافظ على نفوذها وان تطوره دون اللجوء الا في حالات نادرة الى استعمال القوة.. بل انها تمكنت من اقناع المغزوين بانها لم يبق لها سلطان وان الامر الان يتعلق بوجود حضارة عالمية حديثة يستوى في الانتساب اليها الاوروبي وغيره ، ويتكلمون عن رأى عام عالمي وثقافة عالمية وصحافة عالمية واقتصاد عالمي وحقوق الانسان وغير ذلك من العبارات العامة الخداعة .

ساد الغموض واقتنع الناس بانهم تحرروا واصبحوا جميعا مواطني عالم تسود فيه المساواة بين الدول ، مواطني حضارة حديثة يساهمون جميعا في اغنائها وتطويرها وتتغذى من تنوع منابعها المختلفة اختلاف المجتمعات الانسانية . وزاد الغموض غموضا ان الناس

(الجمهور في كل بلد) لم يعودوا يسمعون الا نادرا لغة المستعمر القديم اذ حلت محلها اللغات المحلية او على الاقل رطانات تشبهها شيئا ما .. لغة اوروبية تلبس حلة اللغة المحلية فيطمئن المغزو وترتخي اعصابه وتنام يقظته وكل وسائل دفاعه فتسيخ في عقله وقلبه كما يسيخ السم في الجسم .

لنضرب مثلا .. طلاب من مصر او الهند يدرسون بلغتهم الوطنية برامج وطنية اشرفت على اخراجها حكومتهم المستقلة ويطالعون كتبا الفها كتاب من بلدهم .. من اين لهذا الشاب الناشيء المتفتح للعلم الفخور بقوميته وهويته الوطنية ان يطلع على الحقيقة المختفية، على الثقافة المندسة تحت مظاهر الكلمات المتشبهة بلغة آبائه واجداده، كيف يفهم انه انما يغوص بعيدا في عالم التهجين وان كل جيل بعد جيل يمضي فيه اعمق من سابقه حتى يتم "التقريد" النهائي (ان استمرت العملية دون تقويم) .

بأساليب الاندساس هذه وبوسائل "غسل الدماغ" الفتاكة تفرغ لغاتنا من كل محتوى خاص بها (او تكاد) ويملا الفراغ محتوى اوروبي يحمل في طياته ما استطعنا استيعابه من ثقافة اوروبا وقيمها وفنونها (جميلة كانت ام قبيحة) وحتى مميزات المجتمعات الاوروبية الخاصة من اخلاق وانفعالات عاطفية وذوق (حتى اساليب التنكيت) ، كل ذلك يتسرب الينا ، وطبعا فان مجتمعنا وحتى نخبته الحديثة لا يستوعب جيدا كل هذا "العطاء" ولا "يهضمه" فلا يأخذ منه الا صورة سطحية

ومبسطة وغير قابلة للتطوير والابداع.. نسخة ناقصة ومتخلفة، والامثلة كثيرة في كل الميادين: في الميدان الثقافي مثلا يكفي ان نلقي نظرة على انتاج شعرائنا الاحرار ليظهر (في اغلبيته) وكأنه ترجمة حرفية ورديئة للانتاج الاوروبي.. في السياسة: جميع انظمة وايديولوجيات العالم الثالث مستوردة من اوروبا لكن بشكل ردئ غالبا واحيانا مضحك لو لم يكن مأساويا، كذلك في المستويات الاقتصادية والعسكرية...

ربما وجد البعض هذا الوصف قاسيا اكثر من اللازم خصوصا تجاه اللغات الوطنية وفكرة استعمالها "كحصان طروادة" من طرف الحضارة الغازية، وربما تأثر منه بالخصوص بعض المثقفين الوطنيين الذين خاضوا نضالات مريرة من اجل اللغة القومية (كل في بلده). وربما استنتج المغرضون اصحاب النيات السيئة ان لا فائدة في اعادة استعمال تلك اللغات، وهذا بالطبع ابعد شيء عما نعنيه، بل نقيضه تماما: ان استرجاع الامم للغاتها حتى ولو كانت ممسوخة امر ضرورى وحيوى في مقدمة الاولويات مثل الاستقلال السياسي والسيطرة على الثروات الطبيعية ـ يجب فقط ان ننتبه الى ان الاستقلال الثقافي واللغوى بالذات قابل هو ايضا للتزييف ويجب ان نعمل من اجل تصحيحه واستكماله وان لا ننخدع بمجرد المظاهر. يمر الاستقلال في جميع الميادين بمراحل، ففي المرحلة الاولى من الاستقلال السياسي انخدعت اكثرية الشعوب المستعمرة بظهور حكام سمر وصفر وسود كل المظاهر تشير الى انهم

من شعبهم بينما كانت تختفي تحت الجلود الملونة ارادة اوروبية تدير الامور في الخفاء بواسطة تلك "البوات" (الدمى) لصالح المستعمر القديم الحديث. ولقد عرفت افريقيا مثالا فريدا لذلك "سنة الاستقلالات" (١٩٦٠) التي جاءت اغلبيتها الساحقة على ايدى "زعماء" اصبحوا رموزا لهذا المنهج منهم القس يولو ودافيد داكو واتسيرانانا وغيرهم من ذلك الجيل "الافريقي ـ الملغاشي" المعروف. كذلك الحال بالنسبة للاستقلال الاقتصادى اذ نرى كثيرا من التأميمات تهلل لها الشعوب ويغمر الامل نفوس البؤساء بينما النتيجة الحقيقية هي ان شركة اجنبية تستغل خيرات شعب مسحوق لصالح بلاد مصنعة، تلد شركة ذات اسم محلي تسيرها ادارة (وخبرات) اجنبية لتستغل بواسطتها خيرات شعب مسحوق لصالح بلاد مصنعة.

كذلك فان الشعوب تفرض بنضالها اعادة لغاتها مكان اللغة الاستعمارية الغاصبة ويعلَن الاستقلال الثقافي (٦) الا ان اللغة المحلية التي تُبعث لتستعمل من جديد، انما هي يولو آخر او باندا او باوداى ... هي باختصار شبح لغة انجليزية او فرنسية اكتسى "جلد" اللغة الهندية او العربية او الولفية ولا يزال يبث بواسطتها كل محتوياته الثقافية والاجتماعية. وكما يجب ان تنطلق الشعوب من الاستقلال السياسي الصورى ومن التأميمات "المقلوبة عن ظاهرها" لتفرض بكفاحها استقلالا حقيقيا سياسيا واقتصاديا، لا بد ايضا

من تقديم مزيد من الجهود الجدية من اجل تطهير لغاتها واعادة روحها الاصلية اليها وبناء ثقافاتها بناء جديدا لا مجرد ترجمة حرفية للغات والثقافة المسيطرة، وربما كان هذا النوع من الجهاد اصعب واخطر عواقب من ذلك الذى يهدف الى الاستقلال السياسي والاقتصادى كما ان مسوءولية المثقفين المباشرة في هذا الميدان اعظم واجل واخطر من الاخرى.

اين رواد المستحيل؟

السوءال الذى يطرح نفسه هو: اذا كان هذا صحيحا فهل بقي امل للمجتمعات المستضعفة في ان تسترجع شيئا من شخصيتها، من اصالتها؟ الم يضع فعلا كل شيء؟.

نعم كل هذا صحيح في خطوطه العريضة ولو كانت هناك احيانا مبالغة يفرضها الاختصار وتبيحها ضرورة لفت النظر والتنبيه على مدى الخطر.. بل ان الوصف ناقص فهناك جوانب هامة من "الواقع المر" لم نتعرض لها في هذا العرض السريع. هل بقي اذا امل في انقاذ وانعاش حضاراتنا؟

الجواب صعب وخطير، وهو في نفس الوقت لا و.. نعم.

المهمة شبه مستحيلة، فهل نحن مستعدون لصنع المستحيل؟

الخطوة الاولى هي الانتباه للواقع المر والاعتراف

به والكف عن اللجوء الى مبررات واهية.

ثم الارادة والتصميم

وعلى النخبة مسوءلية عظمى ولها دور حاسم، وهنا تكمن المشكلة فهذه النخبة مهجنة ومستهواة و... منتفعة اكثر من غيرها وليس من المحتمل ان تغير رأيها فجأة وتتخلى عن اعتقادها العميق في تقليد اوروبا كطريق وحيد للنجاة (٧) ومع ذلك فلا بد من مساهمة جزء من النخبة في عملية الانقاذ. لن تنجزه وحدها ولا غنى عن انتباه الشعب (قطاعات واسعة منه على الاقل) ورفضه للواقع المزرى والقاتل وتسخيره كل الطاقات اللامتناهية الكامنة فيه من اجل استرجاع زمام الامور، لكن لا يوجد مجتمع انساني يستطيع القيام بعمل منظم للحصول على اهداف معينة مبرمجة دون ان يكون هو نفسه منظما ومؤطرا، مما يفرض وجود اطر وقيادات، واذا كان العمل المطلوب صعبا وشاقا ازدادت الحاجة الى نظام ادق وقيادات اكثر حكمة واخلاصا. تحدث حالات طبعا تعجز فيها قيادات معينة او نخبة معينة وتقوم الشعوب رغم ذلك او من اجل ذلك بانتفاضات او ثورات ناجحة احيانا، ويستنتج البعض من هذا ان الشعب هو صانع التاريخ لا الاطر، ولا نزاع في ان دور الشعب هو الاهم، لكن، غير صحيح ان الثورات المذكورة تمت بلا قيادات بل بالعكس افرزت الظروف قيادات جديدة اكثر ملاءمة للاوضاع واقرب الى الشعب الذى فرضها مكان القيادات القديمة الفاشلة فنظمته واطرته وقادته في الاتجاه اللائق به (قبل ان "تتعب"

هي بدورها او تخون او تفشل.. لكن ذلك موضوع آخر) ، هذا اذا تركنا الديماغوجية جانبا.

اذا كيف يواجه امجتمع مستباح تحديات هذا العصر وكيف يطمع في صنع المستحيل (وحتى الممكن) ان كان كلما برزت من احشائه طليعة قادرة على تأطيره مطلعة على حقائق الخصوم ومناهجهم، تتحول الى معسكرهم وتصبح آلة استحواذ اضافية ضده؟

الطلائع المثقفة ومسوء وليا تها الصعبة

يتجلى من هنا مدى مسوءولية النخبة وبالخصوص الجزء (القليل) الواعي والمخلص منهـا والذى لم يسلم هو ايضا رغم اخلاصه ووعيه من التهجين والانخداع بسراب "القيعات" الاوروبية. على هوءلاء القلة ان يلعبوا دورا طليعيا باعمق معاني الكلمة. عليهم اولا ان يراجعوا الكثير من الافكار والتحاليل والمبادئ المسلم بها عندهم وان يحضروا انفسهم بذلك للدور الغريب الذى ينتظرهم.

دور غريب فعلا.. عليهم ان يحتفظوا بما تعلموه من الحضارة الاوروبية، بل وان يعمقوا اطلاعهم على مناهجها واسرارها وان "يعودوا" الى مجتمعهم لتثبيت ارتباطهم به وترسيخ اصالتهم فيه. وليدرسوا واقعه وحقائقه بدقة مستعينين بما اكتشفوه من مناهج جديدة وبالمقارنة بينه وبين المجتمعات الاخرى (وهي قاعدة جديرة بالاعجاب اذ تكشف للمرء كثيرا من الحقائق

والمعطيات الهامة كان يعيش وسطها دون ان "يراها" او يوليها اهتماما)٠٠ ثم ليفحصوا بكل امعان هذا العطاء الخصب المتدفق الذى تغرقنا الحضارة الاوروبية في خضمه، ليميزوا الغث منه من السمين، لنتمكن من الانتفاع بالجوانب العلمية والتقنية ونضع جانبا كل ما يتعلق بحياة المجتمع الاوروبي من مميزات خاصة لنا ما يقوم مقامها ويغنينا عنها ويتلاءم مع احساسنا وعواطفنا، في ميادين القيم والاخلاق والشيم٠٠ ثم ليتوجهوا مرة اخرى الى مجتمعهم لينيروا له الطريق في تلك الغابة المظلمة ويساعدوه لينظم نفسه ويكرس جهوده من اجل المعركة الكبرى.

ليس من السهل تجريد الاكتشافات العلمية وتطبيقاتها العملية من محيطها الاجتماعي الاوروبي٠٠ ليس اذا من السهل التمييز بين "الغث والسمين" فمن يتدرب قرب الاوروبيين مثلا يتعود في آن واحد على ارتداء "البذلة" وتحريك آلة ما وشرب الكوكا والسجائر واحترام راحة الاحد (الديميس) والاكل "بالشوكة" وتنظيم الوقت تنظيما عمليا، كما انه في الميدان الفكرى والروحي والاخلاقي يتلبس ايضا "بعادات" جديدة بعضها كذلك ايجابي والكثير منها مضر: منهجية التحليل الموضوعي والنقد، تفكك الاسرة، تغلب الاتجاهات الفردية، تقليد العلمانية بشكل مطلق واعتبار كل ما يتعلق بالدين (خصوصا اذا كان دين الاسلام) مصدر خجل؛ لكن نجد ايضا في الجانب الايجابي نمو الحيوية وتضاعف الرغبة في التعلم

والمطالعة.. الخ.

غريبة حقا مهمة قومنا هؤلاء.. فهم اكثر الناس امتزاجا بالحضارة الغازية واستيعابا لها، وهم الذين يطرح التاريخ والواجب الوطني على عاتقهم مهمة انقاذ مجتمعهم من هيمنتها بدءا بانقاذ انفسهم.. مع الاستمرار في معايشتها والاحتكاك بها والغوص في اعماقها حتى لا يفوتهم سر من اسرارها ولا من نقاط ضعفها وقوتها. يتطلب هذا الدور طبعا مستوى راقيا من الاخلاص والايمان والحكمة والتجرد من الدوافع.. العادية للناس (وللنخبة بصفة خاصة) وغير عادى ذلك النوع من الازدواجية الذى تتطلبه مهمتهم. غير عادى لكنه غير معدوم، فالافتتان بالحضارة الغازية يمر بمراحل ومستويات مختلفة التأثير.

هناك مستوى بدائي وهو الاعم والاغلبية من النخبة لا تتجاوزه، لا يعرف اهله من تلك الحضارة الا جوانب سطحية من مظاهرها البراقة او احيانا تعاطي مهنة تتأثر باساليبها او تكنولوجيتها. يبقى عادة هؤلاء في وضع نفسي غريب، يتوقون الى "الحداثة" وهي في خيالهم اساسا مظاهر استهلاكية وسلوكية تافهة لا تطوفهم اية فكرة عن البنى التحتية والفوقية التي هي زبد لها، يبقون ابدا في حالة من الاعجاب بل التقديس والتعطش و.. اليأس، في حالة من الهوى العذرى لها، لا يخلصهم منه الا الموت، او في حالات نادرة "قفزة" غير منتظرة يمنحها الحظ لاحدهم حتى "يتقدم" الى المستوى الثاني. نقطة ايجابية واحدة:

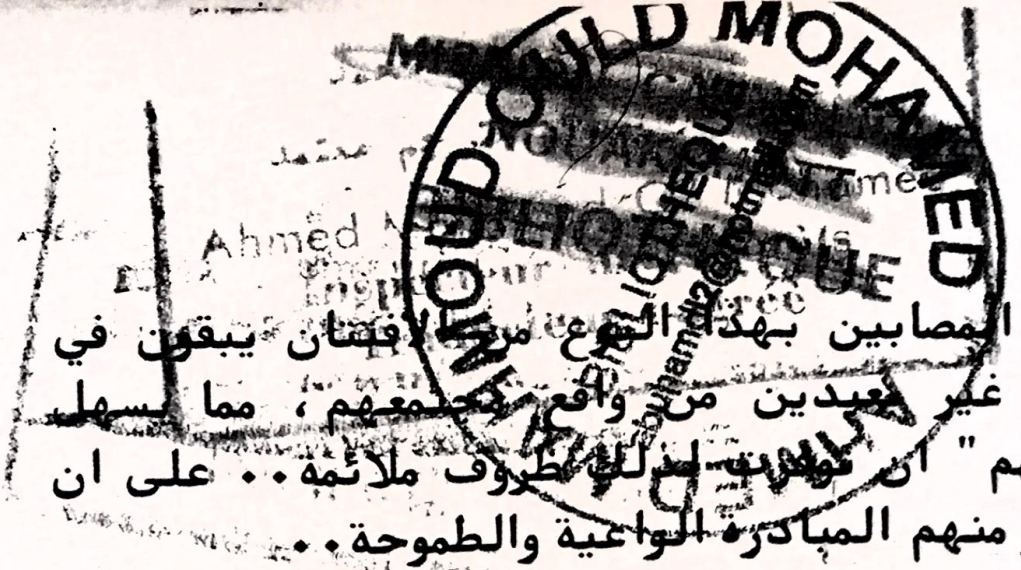

هي ان المصابين بهذا النوع من الافتتان يبقون في الاعماق غير بعيدين من واقع مجتمعهم، مما يسهل "رجوعهم" ان توفرت لذلك ظروف ملائمة.. على ان لا تنتظر منهم المبادرة الواعية والطموحة..

وهناك مستوى عال من الاندماج تصل اليه اكثرية الكوادر التي اقتربت بشكل او بآخر من التعليم العالي الحديث (مهما كانت اللغة المستعملة) هؤلاء (سوى النوادر) يؤمنون ايمانا لا يشوبه شك بضرورة تقليد الحضارة الاوروبية (او الحضارة الحديثة العالمية تطييبا لخواطرهم) وان اى تردد في ذلك لن يكون الا رجوعا لظلام العصور الوسطى وخيانة لمصالح الشعوب المتخلفة والانسانية جمعاء؛ لا داعي اذا للبحث عن اصالة ما ولا عن منهج ولا طريق فكل شيء واضح ولا يبقى الا التسابق للالتحاق بركب "الدول المتحضرة" (٨)؛ بين هؤلاء نجد عددا من المناضلين المخلصين الى حد التضحية (٨) الا ان الاكثرية تتسم بمواقف "لاسياسية" وفي احيان كثيرة وصولية واستهلاكية محضة، وربما كان اعم صفات اصحاب هذا المستوى شعورهم الراسخ بانهم لا يجهلون شيئا عن "الحضارة الحديثة" وعن المجتمع الاوروبي افكارا وتقاليد واخلاقا...

ثم يكتشف بعضهم (بمناسبة ظروف خاصة) انه وان كان تعلم الكثير عن تلك الحضارة فانه لا يزال يجهل الاكثر والاهم عن المجتمع الذى انجبها، فيصغي من جديد بتواضع، فيكتشف.. مجتمعه هو من خلال المتاهات التي تفصل بين الاثنين وان لا سبيل

"لتحويل" ذلك الى هذا فلا يبقى الا الرجوع الى الاصل ، كبداية للنهوض على اسس صلبة .

هذا باختصار شديد ومبالغة ضرورية ، وضع النخبة الحديثة في بلداننا . واصحاب المستوى الاخير رغم قلتهم يمكن ان يكونوا بمثابة "مروب" للباقي او لجزء منه .. ان ضحوا براحتهم وزهدوا قليلا في المناصب وكانوا منصفين ومتواضعين ، طموحين لمجتمعهم لا لانفسهم .

شروط الانقاذ

اولها يمكن استنتاجه من نقيضه ، اى من هذا الاستسلام والاسترخاء القاتل الذى يميز المجتمعات المقهورة .. كأنها في حيرة دائمة لا تدرى اين تتجه ولا كيف ، فتبقى جاثمة لا حراك لها كجسم بلا روح ، يتلقى كل شيء (سلبا وايجابا) حتى المعاش يُقدم له بدون تسبب احيانا مثل "تومزه ينحش لها" (٩) شعب كهذا ولو اغدق عليه ما في الدنيا من رساميل لا يكون منتجا ولا رافضا ولا قابلا ، لو وهبت له المليارات تبقى مكدسة ينفق منها (وتسرق) حتى تنفد فيرجع الى فقره وجوعه ، ولو سلمت له مفاتيح المعامل والمصانع جاهزة لن يستطيع تسييرها الا بالاجانب او تتدهور . اما اذا استرجع ثقته بنفسه واعتباره لها واصبح يقرر ما يريد وما يتوق اليه اى ما يفتح له وفيه "باب الدواعي والبواعث" فان طاقته الخلاقة ستجد

مجرى تتدفق منه وتخلق وتنتج وتبدع، آنذاك تمكن الاستفادة من الرساميل ان وجدت ومن الخبرات والمساعدات الاجنبية ومن كل شيء ، كما يمكن الاستغناء عن كل شيء لم يوجد.. عن كل شيء الا عن ذلك الكنز الخفي الذى لا يُقوم بالذهب ولا.. بالدولار، الكامن في اعماق الروح الجماعية،لا غنى عنه ولا عن "محرك" له.

الشرط الاول هو اذا اذكاء شعلة الحياة في روح مجتمعنا المتمايت. الوسائل الى ذلك ابسطها واقربها و.. اصعبها ، تنبيهه، اطلاعه على الواقع وعلى اسبابه وعلى امكان رفضه وعلى طرق تغييره، وعلى ان ما فرض عليه من خضوع لا مبرر له وان ما اقنع به من ان الاستسلام لا مفر منه غير صحيح.

لكن اية وسيلة لن تنفع وأية محاولة لن تنجح ما لم يتحقق شرط اساسي مطلق الاولوية هو ان تعود الى المجتمع مسوءولية تدبير اموره عن طريق التشاور فيها للتوصل الى رأى جماعي يكون قاعدة للقرار النهائي، بذلك وحده يثق المجتمع بأن الامر أمره وان النجاح راجع اليه (او الخسارة) ويتخلى عن النظر الى القضايا العامة كأنها مشكلة "المخزن" او النظام القائم ، فيبدأ في التحمس لها كمصلحة عامة اى كمصلحة كل فرد منه بصفة خاصة (١٠) فهل نسمي هذا بالديمقراطية، حسب التعبير السائد ورغم الغموض الذى يكتسبه من كثرة الخلافات حول مضمونه، ورغم ماهو اهم من ذلك وهو ان هذا التعبير لا يعني كبير شيء بالنسبة الى

مجتمعاتنا ، الا لعبة سياسية (١٠) تدور في حلقة ضيقة بين اجزاء من النخبة تتصارع على السلطة باسم "الشعب" الذى يتولى الدور الذى يترك له وهو دور يشبه الى حد ما دور.. كرة القدم بين هواتها .

نعم لا بد من استعمال هذه العبارة ، ولو موءقتا ومع ما يلزم من التحفظ ، على ان نوضح ما استطعنا ما نعني بها و.. ما لانعني (وربما كان اهم) .

الرأى السائد عند الجميع هو ان الديمقراطية نعمة من نعم اوروبا على الانسانية وواحد من اعظم اكتشافاتها التي غيرت معطيات حياة الشعوب بشكل جذرى. وفي هذا الرأى نصيب من الحق وكثير من المبالغة. صحيح ان الشعوب الاوروبية حققت اثناء القرون الاخيرة كثيرا من الانتصارات ضد الأضطهاد والاستغلال المطلق وللاقتراب من نظم اكثر عدالة واقل جورا ، وقد تبلورت من خلال معاركها الطويلة من اجل ذلك ، مبادئ رائعة قننت وجمعت تحت عناوين جذابة مثل "حقوق الانسان" ، و"حقوق المواطن" و "حقوق" الشعوب و"حقوق العمال".. الخ اصبحت فيما بعد الدساتير تتحلى بها ، حتى في اشد الدول استبدادا .

لكن.. ظلت الديمقراطية التي يتشدقون بها نسبية وناقصة في اوروبا نفسها (كما سنراه) أما خارجها ، ففي الوقت نفسه الذى كان الاوروبيون يجربون فوق ترابهم ارقى ما وصلوا اليه من افكار الحرية والعدالة (تجارب متفاوتة النتائج) كانوا في نفس الوقت يجربون في باقي المعمورة وضد سائر الامم اشكالا

من الاستعباد والاستغلال والاستبداد واحيانا الابادة لم يعرف التاريخ لها مثيلا لدقتها وفعاليتها وشموليتها. لم تزل اذا العبارات العامة خداعة، فحقوق الانسان لم تكن تعني في الحقيقة الا الانسان الاوروبي (او النوادر من مقلديه).

ولم يكتف الاوروبيون بحرماننا من ديمقراطيتهم اثناء احتلالهم بلادنا، بل انهم حرمونا ايضا من اشكال الديمقراطية التي كانت مجتمعاتنا قد اخترعتها لنفسها فقد قضوا على النظم السياسية بمختلف انواعها واحلوا محلها ادارتهم المباشرة ثم بعد "الاستقلال" اشباحا لنظمهم لا جذور لها عندنا ولا.. عندهم. افسدوا ما كان عندنا ولم يستطيعوا تقديم بديل ملائم.

منا بعنا

واذا كانت لأوروبا الحديثة تجارب غنية جدا في هذا الميدان فان لنا ايضا فيه تراثا عريقا وتقاليد لا يستهان بها، اقدمها واهمها التجربة الفريدة التي طبقت في فجر الاسلام حول مبادئ كانت (ولا تزال) في منتهى التقدم: مبدأ الشورى كحجر الزاوية للنظام السياسي (وسنرى انه اشمل وانجع من عمليات "التصويت" التي عمت اخيرا)، مبادئ المساواة بين الناس والحرية والعدالة الاجتماعية والتضامن الاجتماعي والتضحية الوطنية واعطاء الاولوية المطلقة للمصلحة العامة. لقد طبق الاسلام في عهد الرسول

صلى الله عليه وسلم ما يمكن تسميته (حسب المصطلحات الحديثة) ثورة شاملة روحية واجتماعية وسياسية واقتصادية ثورة لتحرير الانسان ورفع مستواه الى اعلى مسوءولية. طبعا لم يطل الوقت حتى برزت فئات جديدة اكثر طمعا منها ايمانا واخرى اكثر تعلقا بالسلطان منها بالقيم العليا، تنظر الى المسوءولية كمصدر فخر وثراء لا كخدمة متواضعة لمن يتولون امرهم. بدأ مذ ذاك اصحاب المصالح والاغراض الخاصة يحرفون الاسلام وتعاليمه ويحولونه الى عكس ما جاء به ليخدم مصالحهم، فحل الاستبداد محل الشورى ولم يبق للايات والاحاديث التي تشير الى المساواة والعدالة الاجتماعية الا دور التبرك. فكم ترى بخيل يحفظ الاية "والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم"، ويقول حين يقرأها او يسمعها "صدق الله العظيم" دون ان يمر بباله ان هناك اية علاقة بينه وبين هوءلاء المعذبين، واذا خامر احدهم الشك.. وجد من يطمئنه ويجد مخرجا حسنا.

ولم يزل الصراع مذ ذاك بين العدل والجور، بين الحق والباطل، وعرف التاريخ انتفاضات عديدة قمع الكثير منها ونجح بعضها احيانا فانتصر المستضعفون كما انتصروا ضد وجهاء مكة (اعني مكة ابي جهل..) ثم يتغلب من جديد الاستبداد حتى يأتي الاستعمار ليتخذه كحليف حميم له او يحل محله مستغلا بدوره نفس المبررات المغرضة.

رغم كل هذا التحريف والتزوير ورغم كل النكبات ، تبقى الرسالة الاسلامية ومبادئها الخالدة مثالا اعلى ينير طريق من اقتدى بها .

من الانتفاضات التصحيحية الناجحة ثورة المرابطين التي انطلقت من بوادينا البسيطة والنقية والموءمنة لتعيد للحضارة الاسلامية في المغرب والاندلس ما فقدته من مقومات حيوية وتبعد عنها شبح الانحطاط والتدهور .

ثم ان لنا مصدرا آخر اقرب في الزمان يمكن ان نقتبس منه الكثير ، هو تاريخنا السياسي والاجتماعي الحديث ، اى النظم والتقاليد التي كانت تسود مجتمعاتنا قبيل الاستعمار ولا تزال لبعضها آثار ولو مشوهة في كل بلد . ولنأخذ موريتانيا كمثال حي فالقبيلة مثلا كانت نواة مثالية للسلطة السياسية والتضامن الاجتماعي في مجتمع يتميز بلا مركزية الحكم .. الا ان هذه اللامركزية تجاوزت حدود المعقول الى نوع من الفوضى والحرب الاهلية المستمرة ، جاء الاستعمار ليزيل الفوضى هذه (لصالحه) وليفرغ النظام القبلي من محتواه الايجابي . كان الشيخ من يجمع الناس على فضله اى على كفاءته لخدمة المصلحة العامة، على حكمته وحنكته ، على شجاعته او علمه ، على تواضعه تجاه شعبه وكبريائه امام الاعداء .. كان المثل الاعلى في هذا المجال تعبر عنه امثلة واشعار منها "سيد القوم خادمهم" ، ومنها

"وان الذى بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
فان أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وان هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

* * *

ولا احمل الحقد القديم عليهم
وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالي ان تتابع لي غنا
وان قل مالي لا أكلهم رفدا.."

* * *

وجاء الاستعمار ليحول الشيوخ الى اداة قمع واستغلال ضد ذويهم تُنَصِّبُهم الادارة ليعينوها على ترويض الناس واستغلالهم وتترك لهم نصيبا من ذلك كثمن لهذا التحالف المشؤوم. اصبحوا خدما بعدما كانوا قادة.. رغم ان عددا منهم حاولوا طويلا الصمود والخلط بين ما لا بد منه من طاعة الادارة التي قهرتهم وبين ما امكن من مراعاة مصالح رعاياهم والدفاع عنها .. الا ان الطابع العام اصبح ذلك الوضع الغريب الذى وصل اليه في النهاية هذا المجتمع.

ثم جاء "الاستقلال" وظهرت "القبلية" اى ان القبيلة اصبحت اساسا للتآمر ضد المصلحة العامة، اصبحت تعاونية من نوع خاص هدفها مساعدة عدد من الناس بعضهم لبعض من اجل مصلحتهم الخاصة على حساب الدولة وعلى حساب الاخرين. وبما ان للكل قبيلة (او ما يماثلها) فلا غرابة ان تصل الدولة

وادارتها واقتصادها الى ما وصلت اليه من ضعف يشبه احيانا العجز.

كان يسود في مجتمعنا قبل الاستعمار نوع من الديمقراطية (التشاور) وكانت ظاهرة الاستبداد نادرة وكان توزيع الثروات عادلا الى حد كبير (التضامن القبلي، الزكاة، المنيحة، الخ) والفوارق في مستوى المعيشة محدودة (بالمقارنة مع ما وصلت اليه الان) والواقع الذى نصفه هنا بايجابياته وسلبياته، بماضيه وحاضره ينطبق في خطوطه العريضة على عامة المجتمع الموريتاني، "بظانْ واكْوَرْ"، ولو ان بعض العبارات مثل القبيلة تختلف كما تختلف بعض العادات والتقاليد الا انها تتشابه الى حد كبير في مضمونها وتؤدى ادوارا مماثلة.

طبعا ليس المطلوب "الرجوع الى الوراء" وليس سهلا على كل حال. لكن لماذا لا نفكر في الاقتباس ـ على الاقل ـ من هذا التراث الغني، على ان نُقوم ما كان معوجا منه بتجذير المساواة وتعميمها (طبقا لتعاليم ديننا الحنيف) وكذلك العدالة الاجتماعية والديمقراطية الشورية (ان صح التعبير) ولا مانع طبعا من الانتفاع بما يليق لنا من تجارب الامم الاخرى.

الديمقراطية الشورية

لنعد الى مشكلة الديمقراطية لا لانها موضوع الساعة في كثير من بلاد العالم ولاسباب كثيرة ومختلفة

ولكن لانه كما رأينا لا انتعاش يرجى ولا نهوض ولا نمو دون اقتناع المواطن العادى وشعوره بان الامر امره والقرار قراره وان ما نجح من امور البلد له وما فشل عليه (نفعا وضرا) . هذا هو السر في اهمية الديمقراطية وفعاليتها العملية لا انها فقط مبدأ يجب احترامه على من يحترمون المبادئ (وما اقلهم) ولا انها "موضة" اتت من اوروبا ولا ان التظاهر بها يرضي "الرأى العام" الدولي ويحافظ تجاهه على سمعة البلاد . لكن تلك الفعالية كشرط رئيسي للنهوض مجهولة بصفة شبه مطلقة من طرف حكام العالم الثالث ومن طرف الاغلبية الساحقة من اطاراته .. لذلك تبقى الديمقراطية عند الجميع تلك اللعبة التي تحدثنا عنها ، والتي فشلت في كل مكان منه وما لم يفشل منها بصفة واضحة ، وهو القليل بقي موضع خلاف فليس من السهل ان تجد نموذجا مقنعا تقلده خصوصا في عالمنا العربي الاسلامي والافريقي رغم اختلاف التجارب وكلها مستوحاة من الانظمة الاوروبية .

في الحقيقة لا ينبغي ان نبالغ في تعدد التجارب ، فكلهاترجع الىالاقتداء بنوعين اساسيين تنقسم الانظمة الاوروبية اليهما مع فوارق ثانوية داخل كل نوع . فشلت في ربوعنا التجارب "الليبرالية" (البرلمانية) وفشلت المحاولات "الاشتراكية" (الحزب الوحيد) وفشلت الديكتاتوريات المحضة وفشل الخليط الملفق من الجميع وهو الاكثر : "ليبرالية" اقتصادية (مخلوطة احيانا بتأميمات بيروقراطية) الى جانب نظام سياسي

يسوده الحزب الواحد ويطبعه الاستبداد.

هذا هو النموذج الوحيد الذى يحتمل ان "يفخر" العالم الثالث بانه انجبه بتلفيق سلبيات مختلف النماذج الاوروبية وبالابتعاد عن كل ما له علاقة بالمجتمعات المحكومة.

ودون ان نورد هنا تحاليل طويلة عن النماذج الاوروبية وعن الاسباب التي افشلت مقلديها في بلداننا يمكننا الاعتماد على التجارب المعروفة والمتعددة للتوصل الى نتيجة واضحة وبسيطة هي ان ما جرب حتى الان لا يليق بنا وان الامل ضعيف في ان ينسجم اى نموذج اوروبي مع مجتمعاتنا.

يقول المثل الحساني : "ال اقلع ش اديرش افبل" (من ازال شيئا.. فليعوض عنه) لكن "ديران" ما تحتاجه مجتمعاتنا ، اى رؤية متكاملة لمصيرها (سياسية ـ اجتماعية ـ ثقافية ـ اقتصادية الخ) يفوق طاقة اى مفكر بمفرده. من الممكن طبعا طرح برنامج نظرى او تقديم اقتراحات محددة الا ان الرؤية المتكاملة المذكورة لن تبرز في رأينا الا كحصيلة لجهود جماعية يساهم فيها المجتمع في اوسع نطاق ممكن على اثر حوار معمق واختبارها على محك التجربة.

اقصى ما نأمله هنا هو المساهمة في انطلاق الحوار بفتح "التاشورت" من خلال التنبيه على الواقع المرفوض وتقديم بعض الافكار والاقتراحات المقتبسة اساسا من تراثنا العريق ومن تجاربنا الحديثة ، مع ما يؤمل نفعه وتحتمل ملاءمته لنا من تجارب الاخرين.

بعد دراسة المشكلة من جميع جوانبها والتدبر في مختلف التجارب ، يبدو ان اقرب نظام سياسي الى ما يمكن ان يتقبله مجتمعنا وان يستعيد عن طريقه الحيوية الضرورية والمبادرةالتاريخية ، هوالديمقراطيةالشوروية؛ ولكي نفهم جيدا ما هي ديمقراطية الشورى ، نحاول ان نقارن بينها وبين الديمقراطية الاوروبية ليتضح الفرق بينهما .

المبدأالاساسيللشورى هوالمساواةالمطلقة بين بني آدم على اختلاف اجناسهم ورفض تسلط بعضهم على بعض فلا يسمح اذالبشران يفرض رأيه الخاص على غيره .

ارقى مثل لذلك ان الله تعالى امر نبيه وهو معصوم "وشاورهم في الامر.." فاى بشر آخر واى حاكم اولى بان يشاور قومه ويتقيد برأيهم . هناك مبدأ عدالة بسيط ينطلق منه كل شيء : للمرء الحق في ان يقرر وحده في امر يعنيه وحده ، اما ما يعني اثنين او اكثر فلا يحق البت فيه الا بالتشاور بين المعنيين (ربما بدا هذا مبسطا اكثر من اللازم ، لكننا قررنا ان نترك الديماغوجية جانبا وان نوضح الامور بكل بساطة) .

ذلك المبدأ الاساسي ، تنطلق منه ايضا الديمقراطية الحديثة وتتفق معنا حوله . بقي التطبيق وهو كل شيء . واول صعوبة تعترض طريقه (اذا فرضنا حسن النية وعدم المراوغة) هي تعذر تواجد عدد كبير من الناس في مكان واحد واستحالة التشاور بينهم بشكل مباشر . لذلك جاءت عملية "الاقتراع" التي اصبحت سائدة ، كحل "تقني" ملائم ، بل عبقرى اذ تسمح لشعب بأكمله

بابداء رأيه في وقت واحد حول اى قضية تطرح عليه موفرة بذلك ما لا يقدر من الوقت والجهود .. نعم حيلة عبقرية فعلا ، لولا انها تغير تماما جوهر المسألة ، تأتي بحل "تقني" لمشكلة مستعوصة ، وتفرغ الديمقراطية من اهم محتوياتها ، وهو التشاور الذى تحل محله الاستشارة والفرق شاسع . فالاستشارة هي المنهج الذى وصلت اليه الديمقراطية في العالم كله (تحت تأثير اوروبا) وهو باختصار ان قيادة معينة تقرر ما تراه صوابا وتطرحه على التصويت "الحر" ، وحتى لو فرضنا انه حر فعلا (وهي حالة نادرة جدا في بلداننا) فاين للمواطن العادى ان يكون لنفسه رأيا مستقلا حول قضية لم يناقشها تتعلق بعالم بعيد عن واقعه الفكرى والثقافي بلغة لا يفهمها حتى ولو كانت "لغته الوطنية" (لغرابة المصطلحات والمفاهيم المستعملة) ؟ لذلك نراه في ٩٩ في المائة فاصلة ٩٩ من الحالات يعطي صوته "للحكومة" تجنبا للمشاكل ، اولا يصوت اطلاقا لعدم شعوره بان الامر يعنيه (ولا يهم ، فهناك عادة من "يصوت" مكانه) . نكون اذا دفعنا ثمنا باهظا مقابل هذه الحيلة "التقنية" اذ قضينا على المشكل من اصله بدلا من ان نحله.

بينما التشاور (وامرهم شورى بينهم) شيء آخر. يجتمع الناس (بغض النظر عن مشكلة العدد التي سنعود اليها) يجتمعون لـ "يطارحوا آراء" حول قضية تعنيهم كما كانوا يفعلون في بوادينا وارياقنا : رحيل او مقام ، تقسيم دية ، مواجهة غزو ، حفر بئر.. الخ يبدى كل

(١١) رأيه ويستمر النقاش (ان لم يحصل وفاق سريع) ويطول ان اقتضى الحال حتى يبرز رأى يراه الجميع حكيما وسديدا ويمتثله الجميع.. في حالات نادرة يبقى البعض غير مقتنع الا انه يقبل رأى الجماعة (الاكثرية) ويمتثله ان كان امرا حيويا او تبقى له الحرية في اقتفاء رأيه الخاص ان لم يكن في ذلك ضرر للجميع (مثل ان يرحل او يقيم في ظروف لا تتطلب بالضرورة بقاء الحي في مكان واحد).

الفرق بين هذا المنهج وبين قاعدة التصويت هو ان المواطنين الان يصوتون دون ان يعرفوا علام يصوتون ودون ان يعلقوا اهمية كبيرة على تصويتهم، بينما المتشاورون يطلعون تماما على القضايا المطروحة بينهم ويخرجون الصواب (اذا تزاحمت العقول خرج الصواب) ويتركون الزبد يمر حتى يظهر الحق فلا يحتاجون الى تصويت، ليس المهم تعداد الناس كالغنم، وانما احتكاك الافكار والاراء وبروز المعلومات من خلال النقاش ودحض الباطل بالحق على محك العقول الصاغية المنتبهة التي لا يخاف اصحابها مغبة مواقفهم، وليس من المعقول ان يواجهوا الامر بعدم المبالاة ولا بالتملق لان الامر امرهم يعود اليهم نفعه وضره. التصويت دون نقاش عملية اجهاض سلبية بينما يلد التشاور والحوار المعرفة المنيرة والحقيقة المضيئة والاجماع المنعش.

تبقى المشكلة "التقنية" التي واجهتنا منذ البداية: استحالة التشاور بين آلاف موءلفة من الناس. هل نجد

أحمد محمود
[redacted]
NOUAKCHOTT
Ahmed Mahmoud O/ Mohamed
BIBLIOTHEQUE
Inspecteur

لها حلا غير عملية الاجهاض التي شاهدنا سلبية نتائجها؟ نلاحظ اولا ان المشكلة غير مطروحة على المستوى المحلي فالمجموعات التي تضمها قرية صغيرة او حي صغير يمكنها ان تشرف على تسيير جميع شوءونها عن طريق التشاور المباشر كما كان سلفنا يفعل ، على ان نوسع نطاق الجماعة لتضم ، كما اسلفنا جميع المواطنين الموجودين دون تمييز. بهذا نحل الكثير من القضايا المحلية على احسن وجه، بينما يشكل كثير من هذه القضايا الان مصدرا دائما لمشاكل لا حصر لها على حساب السكان وتأخذ جزءا كبيرا من جهود ووقت مسوءولي الادارة بدون جدوى احيانا.

اما القضايا التي تعني مدينة او منطقة يعد سكانها بالالاف او بلدا بأكمله، فيلزم طرحها في نفس الوقت على كل المجموعات الصغيرة التي تتكون منها المنطقة او البلد ، لا يهم عددها : ٢٠ مجموعة او ١٠٠ او آلافا ، تطرح القضية لا لتصويت اعمى على سوءال معروف الجواب مسبقا ، بل لنقاش الموضوع واثارة الافكار حوله واغنائه بكل ما يجود به خيال الرجال وبنات افكارهم.

ثم لا بد من رابطة تصل بين مختلف المجموعات وتنقل ما اثير من الافكار داخل احداها لتستفيد منه الاخريات، يتم ذلك عن طريق وسائل الاعلام (المكتوبة والمسموعة.. الخ) كما لا بد من منسق ، لا بد من هيأة تنسيق ، تشرف على ذلك وتجمع النتائج، اى القرارات التي تصل اليها المجموعات وتتولى التوفيق

بينها حتى تصل الى قرار موحد يتجاوز التناقضات ويلبي رغبات الجمهور ويخدم المصلحة العامة.

كيف تُختار هذه الهيئة المنسقة؟

باتباع نفس المنهج اى بالتشاور بين الناس وبين المجموعات حتى يتفق الرأى على رجال امناء يطمئن الكل الى نزاهتهم. لكن.. لكل امر بداية، فلا مفر من تعيين اول هيئة من طرف جهة ما (او سلطة) تلك التي ستكون صاحبة المبادرة في اقتفاء ديمقراطية الشورى، على ان تستقيل الهيئة المعينة بعد تكوين المجموعات واختيارها لهيأة تنسيق اخرى.

تثير بدون شك هذه الاقتراحات اسئلة اخرى ومشاكل عديدة نتعرض هنا فقط لما يبدو اهمها. لا شك ان احدى الصعوبات المستعصية ستكون في البداية عدم اقتناع الناس بحسن نية اصحاب المبادرة وعدم اطمئنانهم الى صدق ما يقال والى ان آراءهم ستؤخذ بعين الاعتبار، فقد تعودوا منذ عقود ان يسمعوا كثيرا من الوعود الديماغوجية وان الشعب سيد نفسه الخ ليكتشفوا دائما بعد ذلك ان الذى يطلب منهم هو فقط التصفيق والتأييد فاستسلموا نهائيا لهذا المنطق مصممين على ان لا ينخدعوا مرة اخرى برونق الكلام وزخارف الدعاية، على المنسقين ان يعرفوا ذلك وان يستعدوا لتضييع كثير من الوقت اثناء الحوارات الاولى حتى يتعود الناس على التعبير عن آرائهم ويشاهدوا مرات متكررة ان قراراتهم تؤخذ بعين الاعتبار وان حرية التعبير حقيقية ولا تبعات لها، حتى حين تؤدى

الى توجيه انتقادات لا مجاملة فيها الى السلطة واصحابها (لا لمعارضتهم او احراجهم ولكن لاسباب موضوعية.. النقد البناء) هنالك تنمو الثقة وتبدأ الفعالية فعلها ويعطي المنهج خيرة ثماره.

من العقبات المنتظرة ايضا بروز عناصر سيحاولون احتكار الكلام وسيتبنون "الخط الجديد" من اجل استحواذه وفرض وصاية على الناس، مغتنمين صعوبات البداية و"جعرة" الناس وعدم ثقتهم، وبما ان كل سياسة وكل سلطة لا بد لها من انصار و"مناضلين".. سيحاول هؤلاء ان يَكُونوهم ومادام المطلوب الكلام.. الحوار.. النقاش.. فكيف يلامون اذا "ساهموا" وبالغوا في المساهمة؟ الا يجازون كلما تفوقوا؟ لا، بالعكس.. طبعا لكل مواطن الحق في المشاركة في التشاور لكن على المنسقين ان يحموا الناس من تسلط المحترفين المتسلقين وان يفرضوا المساواة الى اقصى حد ممكن في ممارسة هذا الحق الاساسي الذى هو مصدر كل شيء وشرط المشاركة في القرار اعنى حق الكلام، حق التعبير عن الرأى والذى ينبغي ايضا اعتباره اول واجب وطني؛ بالطبع سيطفو الزبد كثيرا في البداية وسيذهب جفاء.. وبعد ممارسة تطول او تقصر حسب الظروف وحكمة المنسق ونوعية المجموعات، يتعود جل الناس على الحوار ويبرز من بينهم خطباء جدد لا تستهويهم الخطابة كحرفة ولا كحيلة، لكنهم يعبرون احسن من غيرهم عما يجول في صدور ذويهم فيصبحون الممثلين الطبيعيين لهم في المستويات التي

يتطلبها التنسيق. اما محترفو التصفيق والولاء للسلطة ايا كانت، فلا شك ان الكثير منهم سيتطور تدريجيا مع تطور مجتمعه حتى يسترجع شخصيته الاصلية وكرامته، وربما كان انقاذ هذه الفئة من الناس (او جزء منها على الاقل) احدى علامات نجاح عملية الانقاذ العامة للمجتمع وحضارته من القهر والمسخ. ولا نعني بمحترفي التملق طبعا المناضلين الوطنيين بمختلف انتماءاتهم (ولو كانوا محترفين) فالمخلصون حقا من هؤلاء سيكونون اقوى سند للمنسقين ولن يرفضوا الاقتصاد في الكلام وان كان عندهم الكثير مما يقال وما يفيد ليوثروا المواطن العادى حتى يتدرب هو الاخر على "حرفته" كمواطن.

لا يستحيل التفكير في الخلط بين المنهجين: استعمال التصويت في بعض الحالات، لكن بعد الحوار، بعد ان يناقش الموضوع المصوت عليه وان تؤخذ الاسئلة نفسهامن نتائج الحوار. الاستشارة بعدالتشاور؟ ممكن طبعا لكن يلزم التحفظ لان طبيعة الناس الانحراف بسهولة نحو الاسهل دائماولا شك ان الخلط بين الاثنين سيؤول الى تلاشي الاهم (التشاور) وبقاء الاسهل (التصويت). ربما كان اسلم في البداية ان يجرب منهج الشورى فترة كافية حتى يتعود الناس عليه ويصبح المجتمع سيد امره، ثم يدرس بعد ذلك موضوع استعمال التصويت في بعض الظروف، والله اعلم.

لا شك اذا ان الشورى هي انجع وسيلة لاذكاء الديمقراطية في ربوعنا، ولاعادة جريان الحيوية في

عروق مجتمعنا. لكن.. مادامت لم تطبق بعد، ولم تطرح للتطبيق؟ هل الافضل مثلا استعمال ديمقراطية صورية متشبهة باوروبا مثل التي تتعاطاها الان دول العالم الثالث كلها، او الامساك (التعفف) عنها والاكتفاء فقط بطرح الافكار السليمة ومحاولة اقناع الناس بها (شعبا وقيادات)؟

الاهم بدون شك هو تنبيه المجتمع على واقعه الخطير وعلى الحلول والوسائل التي تستطيع انقاذه. فهل تكون الديمقراطية الصورية، في ظروف معينة، احدى الوسائل المرحلية للتوصل الى الديمقراطية الحقيقية؟ عند ذلك طبعا يجوز استعمالها.

ماذا عن الاقتصاد و"البرامج"؟

ربما اعترض المنتقدون (ولهم الحق) اننا لم نتعرض للمشاكل الاقتصادية التي ترهق البلاد المتخلفة

الجواب، اولا ان هذه الرسالة القصيرة لا تهدف الى تقديم برنامج مفصل لا في ميدان الاقتصاد ولا غيره. لقد كان هدفها الاطلاع على السبب الجوهرى الرئيسي لتخلف هذه البلاد وركودها وعجز مجتمعاتها، وليس فقط معرفة السبب بل وايضا اكتشاف الدواء المناسب لهذا الداء المزمن، وجاءت برأى حول الداء والدواء لسنا ندعي له الكمال لكن نرجو له ان يكون فاتحة لحوار مثمر بين صفوف النخبة (المستبدة عمليا في هذا المجال) كما نأمل مشاركة بعض فئات الشعب الاخرى ان

امكن وصول هذا الرأى اليها (او اصداء منه على الاقل).

ثانيا، ان في الرأى المذكور كنزا.. متكاملا يمكن من اراد استغلاله من استخراج برامج مفصلة من كل نوع: اقتصادى واجتماعي وثقافي.. الخ، وذلك انطلاقا من قاعدتين اثنتين:

١) الاقتباس (الاستيحاء) من تراث المجتمع المعني ومن واقعه ومن تقاليده في كل ميدان على ان لا يعني ذلك التطبيق الاعمى لكل التقاليد وبعضها فاسد اصلا وبعضها لم يعد مناسبا ولا يعني رفض الاستفادة من كل ماهو اجنبي.

٢) تحكيم المجتمع المعني في كل شيء، لا على طريقة "مشورة فم القربة" التصويتية ولكن بواسطة الحوار المسؤول.

طبعالكل منان يحاول ان "يتنبأ" بما سيؤول اليه اختيار هذا المجتمع او ذاك، هذا الشعب او ذاك من اتجاهات اقتصادية وثقافية.. الخ او ان يحضر دراسات واقتراحات محددة تتعلق باختصاصه (اقتصادية مثلا اذا كان اقتصاديا) يساهم بها من اجل اغناء الحوار وتوفير كل المعطيات والمعلومات للمتحاورين، وهو دور ضرورى الا انه خارج عن موضوع هذه الرسالة.

لسنا اذا بصدد وضع برامج لمجتمعات شتى لا شك ان اختياراتها ستختلف كثيرا.

نرى فقط من المنطقي انها ان اعطيت الخيار فعلا، سوف ترحب جميعا بمنهج يمكنها من التحكم في امورها

بكل حرية وعدالة، كما اننا نتوقع ان المجتمعات الاسلامية او على الاقل تلك المتأثرة في اعماقها بتعاليم الاسلام وقيمه سوف تفرض ان وجدت الى ذلك سبيلا تطبيق مبادئ اساسية (اشرنا اليها آنفا) ذات انعكاسات اقتصادية واجتماعية هامة يمكن ان نستنتج منها، اذا قارنا بينها وبين النظم والمصطلحات السائدة في عالم اليوم: رفض الفوضى الرأسمالية واستبداد البيروقراطية (سواء وصفت بالاشتراكية ام لا) واحترام الحريات العامة وخصوصا الحرية المطلقة للفرد الا ما يتناقض مع المصلحة العامة حسب ما يراه المجتمع نفسه، اى شعور الجمهور لا رأى حاكم مستبد (او فئة او حزب) يعتبر كل مخالفة لرأيه الخاص اخلالا بالمصلحة العامة كما هو الحال الان في ٩٨ بالمائة من بلدان العالم الثالث، وطرح العدالة الاجتماعية وازالة الفوارق الصارخة بين المستضعفين وبين المنتفعين على حسابهم من ورثة الاباء الاولين (ابي جهل وابي لهب و.. و..)، حتى لا يعيش المجتمع في تناقض دائم مع مبادئ الشريعة التي يومن بها ويحرص على اتباعها.

هذا ومجال الحوار مفتوح وباب النقد بكل اشكاله مفتوح على مصراعيه لمن اراد ان يضيف شيئا او ينبه على نقص او يرفض الاطروحة من اصلها او يأتي ببديل، الباب مفتوح لكل من قرعه، حتى ولو جاء ليبرهن على ان كل شيء على ما يرام وان لا داعي للقلق ولا للبحث عن دواء لداء لا وجود له (او لا يحس هو به على الاقل) فلكل رأى نصيبه من الصواب وكل رأى ولو مخطيء ينفع من يبحث بجدية عن الحق.

الهوامش

(١) وطبعا لا ينجم عن ذلك اى تعاطف مع النظريات الموالية للامبريالية.

(٢) من القصص الشعبية الموريتانية قصة تفسر سبب مشية الغراب الغريبة والمضحكة: ذلك انه رأى ذات يوم اليمامة (ولم يكن يعرفها قبل) فاعجب اشد الاعجاب بمشيتها "المتمايحة" الرزينة الجميلة.. فقرر ان يقلدها وبعد جهود طويلة ومضنية اكتشف انه لن ينجح، فقرر الرجوع الى مشيته القديمة والتي لم تكن ممتازة جدا الا انها كانت "معقولة" وطبيعية على الاقل، فكانت المفاجأة المرة اذ اكتشف الغراب المسكين انه من فرط محاولة تقليد اليمامة، لم يعد يتذكر كيف كان يمشي قبل ان يعرفها فبقي "بلامشية" ولم يزل مذذاك "إِرَشَّدْ" كماعهدناه.

(٣) تستعمل "اوروبا" بالمفهوم الحضارى الواسع لا بالمفهوم الجغرافي او الايديولوجي الضيق. اى انها تشمل روسيا وامريكا واستراليا واسرائيل.. الخ

(٤) ليس المقصود هنا المعنى السياسي و"الحركي" الحديث لهذه العبارة وانما نقصد بها لبحيوية الزائدة والنشاط الدائم كأسلوب جماعي في كل ميادين الحياة (لا السياسية بصفة خاصة).

(٥) ولن يصعب على القارئ المطلع وجود امثلة كثيرة لذلك في اللغة التي نستعملها هنا في هذه الصفحات: فكيف ينجو المؤلف وحده من داء عمت عدواه البلاد والعباد؟ المهم ان ننتبه لخطورة الداء ونبحث عن الدواء وعسى الله ان يرزقنا الشفاء.

(٦) اما البلدان التي لم تحقق بعدُ هذا "الاعلان" الرسمي ولم تتخلص بعد من هيمنة الاستعمار الثقافي المباشر فعليها ان تحاول التخلص السريع منه وفي نفس الوقت عليها ان تخصص جهودا مكثفة من اجل انعاش و"تأصيل" لغاتها لتجتاز مرحلتين معا او على الاقل مرحلة وبداية اخرى.

(٧) لا يعني ذلك ان الكل عميل، فهنالك وطنيون مخلصون يرفضون التبعية ومناضلون من مختلف الاتجاهات مستعدون للتضحية في سبيل امتهم، الا ان الجميع (سوى النادر) لا يرون سبيلا للرد على التحدى الاوروبي الا باستعمال الاسلحة الاوروبية (الفكرية والعلمية والمادية.. الخ) وهم على صواب الى حد بعيد، لكن سنرى ان استعمال هذه الاسلحة يتطلب ان نعيد قبل كل شيء تماسك مجتمعاتنا وثقتها بنفسها وحيويتها الداخلية، والا ذابت الشخصية الاصلية وبقي التقليد سطحيا يقتصر على السلوك الخارجي التافه وضيع المقلِّدون اخلاقهم وقيمهم دون استيعاب قيم واخلاق المقلَّدين، وتتكرر قصة الغراب مرة اخرى.

(٨) من اوضح الامثلة على ذلك ما كتبه (بكل طيب نفس) موءسسوالنهضةالوطنيةالموريتانية (١٩٥٨) على بطاقات الحركة: "ترمي النهضة الوطنية الى تحرير بلاد شنقيط والسير بها الى الامام في طريق الرقي حتى تدخل في زمرة الدول المتحضرة.." كان النهضيون مستعدين للتضحية بكل شيء خدمة لوطنهم: "ايها العضو اعتقد انك بعت نفسك في سبيل الله وخدمة الوطن.." لكننا لم نكن نرى الا عقبة واحدة: السيطرة الاجنبية المباشرة، لم نكن نرى اى تناقض بين التحضر (اى تقليد الحضارة الحديثة) وبين الحفاظ على شخصية مجتمعنا وتماسكه واصالته.

(٩) عنزة "لا تهش ولا تنش" يوءمن لها الاكل والشراب.

(١٠) كما هو الحال مثلا عندنا في موريتانيا بالنسبة الى القضايا التي تتعلق بمصلحة القبيلة والتي نرى كل فرد من آلاف اعضاء قبيلة ما يبذل من اجلها جهودا مضنية لو يخصص عشرها للمصلحة الوطنية لحل الكثير من مشاكلنا.

(١١) "ابَّلَتيكْ" كما كان الناس يسمونها (وهم مصيبون).

(١٢) لم تكن المشاركة الفعلية في الرأى تعم جميع الناس (على الاقل بصفة مباشرة) وتلك احدى المناسبات الملائمة لادخال تحسينات على ما كان ناقصا ولسد الثغرات التي كانت تضعف المجتمع وتتناقض مع مبادىء شريعته.

Ahmed Mahmoud
Ould Mohamed

Imprimerie spéciale Papyrus.

39 bd. Magenta. 75010 Paris.